ضلالات الحلاج

٢- حول منهج البحث فى سِيَرْ الأقدمين

محمد سعد زغلول سالم

أغسطس ٢٠٠٦

١- قُتِلَ الحلاج وسواء أكان ذلك عدلا أو ظلما فقد صار فى حضرة الحق وحسابه عند ربه وما أتعرض له هنا ليس شخصه بل أفكاره وعقائده التى باح هو بها فى كلامه وفى أشعاره وذلك لأن هذا الأمر واجب على كل مسلم – أو أى مؤمن بعقيدة أخرى - عندما يجد ما يسيء إلى هذه العقيدة أو يشوهها أو يلصق بها ما ليس منها. وليس هذا دفاعا عن الإسلام الذى تكفل الله بحفظه ولكن عملا بواجب تغيير المنكر وهو أمر لا تستقيم الحياة بغيره وتنبيها للمسلمين الذين قد لا يتنبهون إلى ما فى هذه الأمور من أخطاء وضلالات تتعارض وتتناقض مع الفطرة التى فطرنا الله عليها.

٢- ما عرضته فى الجزء الأول من مقالتى هذه (منابع الضلال و المصير) هو رأيي المستند إلى ما تواتر إلينا من سيرة الحلاج وغيره ممن ذكرتهم فى نهاية المقال من مختلف المصادر المتعارضة والمتناقضة والتى تفسر وتؤول هذه الأخبار طبقا لمعتقداتها. وليس هناك أى صبغة لما يمكن تسميته (قلم طائفى أكثر منه محايد) لأننى أتعرض لفكر يبوح به شخص – أيا كان هذا الشخص الحلاج أو غيره – وأنقده بناءا على المرجع الذى يجب أن يلتزم به أى مسلم فى هذا الشأن وهو القرآن الكريم والحديث الصحيح.

وتدليلا على هذا أنقل هنا ما كتبه عن الحلاج مؤرخ الصوفية وأحد أقطابها أيضا وهو عبدالوهاب الشعرانى فى كتاب (الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار) تأليف أبى المواهب عبدالوهاب بن أحمد بن على الأنصارى الشافعى المصرى المعروف بالشعرانى - ضبط وتصحيح خليل المنصور - منشورات محمد على بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان تحت رقم ٢٠٩ نقرأ الآتى : ٢٠٩- ومنهم أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله تعالى. وهو من أهل بيضاء فارس ونشأ بوسط العراق. صحب الجنيد والنورى وعمرو بن عثمان المكى والفوطى وغيرهم رحمهم الله أجمعين. والمشايخ فى أمره مختلفون. رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف. وقبله بعضهم منهم أبو العباس بن عطاء ومحمد بن حنيف وأبو القاسم النصرآباذى وأثنوا عليه وصححوا حاله وحكوا عنه كلامه وجعلوه أحد المحققين حتى كان محمد بن حنيف يقول : الحسين بن منصور عالم ربانى.

ونجد نفس هذه الكلمات فى كتاب الطبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمي .. تحقيق د. أحمد الشرباصى منشورات كتاب الشعب - مصر ص ١٠٢ مع إستبدال إسم محمد بن حنيف بـ محمد بن خفيف. فها نحن ذا نرى أن

أكثر المشايخ (أى مشايخ الصوفية وأعيانهم) ردوه ونفوه وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف .. وهى عبارة تتضمن الكثير رغم ما أعقبها من شهادة مناقضة لها من آخرين.

٣ـ هناك العديد من المناهج التى يتوجب إتباعها لمن يريد الوصول إلى الحقيقة وتتنوع هذه المناهج تبعا لمجال البحث فهناك المنهج التجريبى والمنهج التحليلى والمنهج الإستنباطى والمنهج الإستقرائى والمنهج التركيبى والمنهج الإفتراضى وغير ذلك من المناهج المختلفة ولكننا نصطدم دوما بالتناقض والتباين فى ما يصلنا من أخبار عن أناس غابرين لا يزال تأثيرهم ملحوظا حتى الآن وذلك بسبب تدخل الأهواء فى تفسير وتحليل وإستقراء وإستنباط المعانى الكامنة فى هذه الأخبار. وهذا أمر لا مندوحة عنه ويمثل معضلة حقيقية لمن يبغى الوصول إلى الحقيقة فى مثل هذه الأحوال والتى غالبا ما تكون حقيقة ذات أوجه متعددة حسبما يراها كل باحث عنها.

٤ـ يجب مراعاةً للحيدة والإنصاف فى مثل هذه الأمور توخى بعض المبادىء التى تساعد كثيرا فى الوصول إلى الوجه الأكثر إحتمالا للحقيقة وفيما يختص بالحكم على سير الغابرين من البشر فإننى لا أكون رأيا عنهم إلا من خلال الكتابات التى تتبنى وجهة نظرهم وتتفهم دوافعهم وليس من خلال الكتابات المناوئة لهم منذ البداية بسبب الإختلافات العقيدية أو الفكرية .. الخ. وهذا هو أقصى ما يمكن للمرء أن يلتزم به حفاظا على الحياد فى الرأى والعدل فى الحكم. وفيما يخص رأيي فى (الحلاج) فقد كونته إستنادا إلى ما ذكرته مصادر الصوفيين وغيرهم ممن ينحون منحاهم عن سيرة حياته وأقواله وأفعاله التى ذكرت بعضا منها.

٥ـ هناك أسباب كثيرة للتباين الحاد والتناقض اللافت فى الرأى الذى يحدث بين الباحثين حول نفس الموضوع وذلك بسبب الإختلافات المشار إليها وهذا أمر لا يمكن تجنبه بسبب الطبيعة الإنسانية فى الفكر والشعور. فأنا ـ مثلا ـ أرى الحلاج ومن لف لفه من الصوفية الذين ذكرت بعضهم فى المقال ضالين مضلين عن منهج الإسلام إستنادا إلى ما كتبوه بأنفسهم أو ما كتبه عنهم تابعيهم أو مريديهم وأعتبر أن محيى الدين إبن عربى إمام الضالين الذى بلغ فى الضلال والزيغ شأْواً بعيدا قل أن تجد مثيله حتى بين الصوفيين ولا حتى الحلاج نفسه. فهذا الأخير كان يقول (أنا الحق) بينما بلغت جرأة محيى الدين إبن عربى وإجتراؤه على الحق أن يحلل سر هذا الحق وتركيبه وسلوكه ودوافعه و(أنثويته) مثلما جاء فى رسالته المعنونة بعنوان (رسالة في أسرار الذات الإلهية) فضلا عن العديد مما لا يحصى من رسائله الأخرى المُفْعَمَة بالكفر والفسوق والتخاريف والأوهام بينما يرى الصوفيون مثلا أن الحلاج هو (شهيد العشق الإلهي) وأن محيي الدين إبن عربى هو (مستودع السر الإلهى) ويعتبرونه كالباقين من الأولياء ذوى المكانة وأن أسرارهم مقدسة وكذا أرواحهم وقدراتهم ومنازلهم وأعمالهم إلى آخر هذه الخرافات والخزعبلات والضلالات والتُّرهات التى لا أصل لها فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف.

٦ـ رغم أن غياب مثل هذه الأمور وعدم ذكرها فى أصول الإسلام يَسِمُها بالإبتداع وما يترتب على ذلك بالنسبة للكثيرين من إنكارها وإنتقادها بل وتكفيرها أحيانا إلا أنه بالنسبة لى فإننى أعتبرها فقط حافزا كافيا للشك حول

مصادرها ودوافعها ولتحليل مضمونها وهذه هى النقطة المحورية للخلاف بين مؤيدى الصوفية ومنتقديها مثلى. فأنا أحكم بظاهر القول أو الفعل وعندما يقول الحلاج مثلا (أنا الحق) فهو أمر يشير بصفة قاطعة ــ كما أظن ــ إلى إضطرابه النفسى والعقلى أما مريديه فيعتبرون هذا القول ذروة الكشف والوصول .. إلى ماذا ؟ حقيقة لا أعرف ! هل إلى كشف حقيقة الحلول والإتحاد ؟ أم حقيقة وحدة الوجود ؟ أم إلى مقام البقاء والفناء ؟. وهى أسئلة لا سبيل للإجابة عليها إلا بإجابةٍ واحدةٍ بلهاء طُبِعَ عليها كل من أَوْغَلَ فى هذا المسلك الضال وهى : من ذاقَ عَرَف !!.

وهذا التحليل قابل للتطبيق أيضا على باقى أقطاب الصوفية التى تَشِى أقوالُ مريديهم التى كتبوها عنهم بضلالٍ وإبتعادٍ شديد عن عقائد الإسلام بما ينسبونه إليهم من أقوال وافعال مثل معرفة الغيب والإطلاع على اللوح المحفوظ وتغيير القضاء والقدر والإتيان بالمعجزات الخارقة .. الخ إلى غير ذلك من ضلالات تشاركهم فيها عديد من الجماعات الضالة الأخرى وإن كانت كلها تنهل من المنبع الأول والأصلى لها وهو عقائد وضلالات الشيعة وبعض الفرق الأخرى فيما يزعمونه وينسبونه لأشخاص من صفات وقدرات ومنزلة عند الله عز وجل لا وجود لها فى صحيح العقيدة الإسلامية فى القرآن الكريم والحديث الصحيح وهى الضلالات التى مهدت لظهور ضلالات البابية والقاديانية والبهائية والصوفية والعديد غيرها من الطوائف الضالة مستندة إلى مفاهيم التأويل للقرآن الكريم والتميز عن بقية الخلق أجمعين ومعرفة أسرار الحقائق التى إختص الله بها ذاته. وكلها بدع منكرة أحاقت بالمسلمين على إمتداد تاريخهم شروراً قل أن تجد مثيلا لها بين أتباع العقائد الأخرى.

٧ـ فيما يختص بمقولة إن البعض يعتبر الحلاج من أئمة الدين فهذا قول يُلْقَى على عواهنه بغير أى أساس أو دليل وأما عن القول بإن هناك الكثير من الدراسات بالشرق والغرب عن الحلاج فهذا أمر صحيح ولكننى أريد أن ألفت النظر إلى أن كل من كتبوا عنه من الغربيين هم إما فلاسفة ملحدين أو متصوفة معتقدين بمبادىء (الثيوصوفيا) أو آخرين لأغراض أخرى أما من كتب عنه من الشرقيين فهم كما سلف القول إما متصوفة يؤمنون بعقائده المشتركة معهم أو آخرين معجبين فقط بما فى أشعاره من وَجْدٍ و وَلَهْ بغير إلتفات أو إهتمام إلى ما فيها من مثالب عقيدية.

٨ـ أظن أنه من المفيد أن يكون واضحا أن الإتفاق على أمور كهذه أو غيرها من أمور دينية وعقائدية ـ بدأ وإستمر الخلافُ عليها منذ قرون ومازال وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ــ هو أمر مستحيل لا سبيل إليه لأنه يتعارض مع أحد سنن الله فى الخلق وأحد طبائع البشر فى الحياة ولذا فإن تناولها بالنقد أو الإنتقاد يجب أن يتم بغير تعريض أو تجريح إنما فقط ليكشف الذى يتناولها ما يراه بها من أخطاء تتعارض مع ما يؤمن به من أفكار.